تأمُّلاتٌ

حولَ الإسراء والمعراج

قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1].

في هذه الآية الكريمة أشارَ النصُّ القرآنيُّ المجيدُ إلى رحلة الإسراء مفتتحًا الحديثَ عنهَا بتسبيحه جلَّ شأنُه مبتدئًا بكمال تنزيه الذات العلية عنْ كلِّ نقص، وموضِّحًا الحُجَّةَ الدامغةَ الصريحةَ علَى أنَّها معجزةٌ فوقَ مستوى العقل البشريِّ، وذلك بإسناد الفعل إلى الله العليِّ القدير، ولـمَّا كانَ في الإسراء ما فيه من سُمُوِّ مكانة الرسول ﷺ وزيادة تشريفه فقدْ وصفَهُ اللهُ تعالَى بأسمَى الأوصاف، وأكرم المقامات، وهيَ قولُه تعالَى: «بعبده»؛ فهو الذي خلَصَتْ عبوديتُه، وكمَّله ربُّه، وأدَّبه فأحسنَ تأديبَه، وتوجَّه بمكارم الأخلاق، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

وقد كشفتِ الآيةُ الكريمةُ عنْ آلاءِ اللهِ التي توافدَت علَى

(١) سورة الإسراء: ١.

حبيبه ﷺ، وذلكَ في قوله تعالَى: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1]. وفي تلكَ الآيات التي أراهَا اللهُ حبيبه ومصطفَاهُ ﷺ ما يدلُّ علَى كمال قدرة الله سبحانَه وتعالَى، مما لا يسوغُ لمنكر جاحد أن يتصدَّى لهذه المعجزة الخارقة بالإنكار، لاسيَّما وقد أمدَّ اللهُ تعالَى الفكرَ البشريَّ اليومَ بفيض غامر من العلوم والمعارف التي جعلتْه يرسلُ الطائرات في الأجواء، ويبعثُ سُفُنَ الفضاء فترسُو على القمر، فكيفَ ينكرُ إنسانٌ على خالق القُوَى والقدر ومدبر السموات والأرض إسراءَه برسوله ﷺ؟!

* * *

وما ينبغي الإشارةُ إليه أنَّ الإسراءَ والمعراجَ ليسَا المعجزةَ الرئيسةَ لتَأييد الدعوة، وإنَّما المعجزةُ التي تحدَّى بهَا القومَ هيَ القرآنُ الكريمُ. أمَّا هذه المعجزةُ فهيَ إحدى الخوارق، وفي الوقت نفسه تكريم أيّ تكريم لخاتَم المرسلينَ ﷺ.

ويظهرُ للباحث في قصة الإسراء والمعراج أن قصةَ المعراج لمْ تذكرْ

(١) سورة الإسراء: ١.

مع قصة الإسراء في سياق النصِّ القرآنيِّ الحكيم، مع أنَّهما حدثتَا في ليلة واحدة، وذلكَ إنَّما كان تنبيهًا لقلوب القومِ وفتحًا للأفق الفكريِّ لديهم حتَّى يدركوا الحقيقةَ عنْ طريق إيمانيٍّ سليم، تتضحُ أدلَّتُه أمامَ أعُينهم تدريجيّاً بالإسراء أولاً. وعندَما تتضحُ الحقيقةُ بأدلَّتها الناصعة علَى صدق الرسول ﷺ في وصفه لبيت المقدس عندَما سألَه المشركونَ عَنه ووصفَه لعيرهم التي كانتْ هناكَ، ومَا إلَى ذلك من الدلائل المادية علَى صدق المعجزة، فتأنسُ القلوبُ وتثقُ بالمعجزة، فيحدِّثُهم بعدَ ذلكَ - القرآنُ الكريمُ عَن بقية الرحلة في سورة النجم، قالَ الله تعالَى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾[1].

* * *

(١) سورة النجم: ١ - ١٨.

رسمتْ رحلةُ الإسراء والمعراج منهجًا مشرقًا للحياة، وأخذتْ مسيرتُها المباركَةُ تقدِّم قيمًا رشيدةً وحكمًا دقيقةً، وطالعَت العالمينَ بمعجزة باهرة سبقَتْ تقدُّمَ العلم الحديث واكتشافاته، وخرقَتْ نواميسَ الطبيعة، وتحدَّتْ دورةَ الزمن، ويومَها تمحَّصَت قلوبٌ؛ وتفجَّرتْ مبادئُ، وتماسكتْ قُوَى الإيمان الصادق لتواكبَ قافلةَ الدعوة في نضالها حتى يُحقَّ اللهُ الحقَّ ويبطلَ الباطلَ ولو كرهَ الكافرونَ.

وقد كشفت هذه الرحلةُ عنْ صور ونماذجَ لمنْ اعتدلَ بفطرته ولمن حادَ عنها. ومن بين ما ألقتْ عليه الرحلةُ من أضْواء ركنٌ من أركان الإسلام وفريضةٌ من أهمِّ الفرائض، وهيَ الصلاةُ.

والصلاةُ كانتْ من بين ما أوحَى اللهُ به إلى نبيِّه ﷺ ومن بين ما افترضَه ليلَتها على نبيِّه ﷺ.

وهكذا يتضحُ لنا سموُّ مكانة هذه الفريضة، ومنزلتُها المهمةُ عندَ الله سبحانَه وتعالَى، فقد استدعَى الحبيبُ حبيبَه، وعرجَ به إلى السموات حتَّى كانَ في حضرته القُدُسيَّة ليخاطبَه مشافهةً بهذَا الأمر المهم، وبتلكَ الفريضة المحبوبة، الصلاة. فمنزلةُ الصَّلاة من الدين

كمنزلة الرأس من الجسد، فلا دينَ لمنْ لا صلاة لهُ.

* * *

وكانَ عطاءُ الله تعالَى لرسوله ﷺ في هذه الرحلة المباركة علَى حسب كرم الله العزيز الوهاب، وعلَى حسب عظمته وحكمته فكانَ عطاءً كريمًا وجزيلاً، وبعدَ فترة أوذيَ فيهَا الرسولُ ﷺ فتحمَّلَ، وصبرَ صبرًا جميلاً، إنَّهُ عطاءٌ من نوعٍ فريدٍ لا مثيلَ لهُ.